الكتاب الثامن والعشرون

حول تشكيل العقل المسلم

المؤلف : أ.د. عماد الدين خليل

المعهد العالمي للفكر الإسلامي،ط٥، ١٩٩٢م،١٨٠ص

تحليل وعرض د. حسان عبد الله حسان

الكاتب: السيرة الذاتية والتكوين العلمي:

من مواليد الموصل - العراق عام ١٩٣٩، حصل على درجة الليسانس من قسم التاريخ بكلية التربية جامعة بغداد في عام ١٩٦٢، ثم أكمل دراسته في التاريخ وحصل على درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي كلية الآداب، جامعة الموصل عام ١٩٦٥، ثم درجة الدكتوراه في نفس التخصص من جامعة عين شمس بمصر في عام ١٩٨٦.و يعمل في قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة الموصل.

يدور الإنتاج الفكري للكاتب في عدة محاور: أولاُ المحور التاريخي ،ومن الدراسات في هذا الجانب «ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز، ١٩٧٠، «عماد الدين زنكي ١٩٧١»، «دراسة في السيرة ١٩٧٤»، «في التاريخ الإسلامي: فصول في المنهج والتحليل، ١٩٨١» ، «حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، ١٩٨١»، و«التفسير الإسلامي للتاريخ ١٩٨٥». ثانيًا: محور الدراسات الإسلامية، ومن إنتاجه في هذا الجانب «مقال في العدل الاجتماعي،١٩٧٨»، و«مع القرآن في عالمه الرحيب، ١٩٧٨»، و«آفاق قرآنية،١٩٧٩»، و«العلم في مواجهة المادية، ١٩٨٣، مدخل إلى موقف القرآن من العلم الحديث ١٩٨٢»، و«في الرؤية الإسلامية، ١٩٨٨»، و«حوار في المعمار الكوني، ١٩٨٧»، و«حول إعادة تشكيل العقل المسلم ١٩٨٣» وهو الكتاب موضع الدراسة الحالية. ثالثًا: محور الدراسات الأدبية والإبداعية ، واهتم فيه الكاتب

بطرح قضايا تتعلق بمفهوم الأدب والفن من المنظور الإسلامي، ونقد الرؤية الغربية ومن كتاباته في هذا المجال «في النقد الإسلامي المعاصر ١٩٧٢»، و«الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي ١٩٧٧»، و«مدخل إلى الأدب الإسلامي ١٩٨٧». هذا بالإضافة إلى مجموعة من المسرحيات ودواوين الشعر.

(٢) مداخل منهاجية: معرفية ونقدية:

القارئ للإنتاج الفكري لعماد الدين خليل لابد أن يتوقف أمام المعالم الرئيسية لفكره ليرسم صورة عقلية عن غاية هذا الإنتاج الفكري ومنهجيته إذ لا يمكن الوقوف أمام فكره بصورة جزئية، وذلك لأن عماد الدين خليل له مشروع فكرى تأصل في كتاباته ، والبحث عنه لا ينبغي أن يكون بقراءة كتاب واحد أو اثنين أو التعامل مع إنتاجه بصورة جزئية أو منفردة.وفي قراءة استطلاعية لفكر الكاتب يمكن ملاحظة عدة أمور:

أولًا: ذلك التأثير التربوي الواضح في سنوات دراسته الجامعية الأولى في طريقة كتاباته ومضمونها –حيث إنه تخرج من كلية التربية – والتي أفرزت له حسًا وجدانيًا في تشخيص داء القضية التاريخية محور اهتمامه الأساسي من ناحية، والعناية بالمجتمع المسلم وخصائصه النفسية والتربوية من ناحية أخرى.

ثانيًا: رغم أن الكاتب تناول بالدراسة الأحداث والوقائع التاريخية إلا أننا لا يمكن أن نعتبره مؤرخًا يبحث في الحادثة وتاريخ وقوعها ونتائجها. ذلك أن طبيعة تناوله لهذه الأحداث والوقائع تختلف جذريًا عن تناول المؤرخ. إذ اهتم بما يعرف بـ«فلسفة التاريخ» ومثَّل «التاريخ» عنده «قضية» و«إشكالية» هي بالأساس «قضية أو إشكالية الوعي»، لذا نجده يبحث دائمًا عن «المبادئ» و«القيم» و«الرؤية» حتى وصل إلى الارتباط بمشروع إسلامية المعرفة الذي فرَّغ فيه جزءًا من إبداعاته الفكرية في هذا المجال.

ثالثًا: إن أعمال الكاتب تمثل مداخل منهاجية لما كتب فيه حيث قدم - كما سنتناول فيما يلي - «منهج لدراسة الحضارة الإسلامية»، «مدخل إلى إسلامية المعرفة»، «مخطط مقترح لإسلامية علم التاريخ»، «نقد الاستسلام لمصادرنا التاريخية»، «الفن والانبثاق الإسلامي» «التفسير الإسلامي للتاريخ»، «تبويب الآيات العلمية في القرآن»، وهكذا فقد حاول تقديم مداخل منهاجية معرفية نقدية لقضايا فكرية، وبالتأكيد لو أنه ركز كل كتاباته في «الشأن التاريخي» لتراكم لدينا بحوث ودراسات كانت تمثل تأسيسًا لنهج جديد في علم التاريخ وفلسفته. وسوف نشير هنا إلى مدخلين أساسيين من هذه المداخل المنهجية عند الكاتب:

الأول: مدخل منهاجي لدراسة الحضارة الإسلامية

يقدم الكاتب أفكاره المنهجية حول دراسة الحضارة الإسلامية مبينًا الضرورة العلمية لذلك وهى الحاجة إلى منهج أكثر سلامة لدراسة وتدريس الحضارة الإسلامية والذي أصبح ضرورة من الضرورات في ضوء محاولة تقديم البديل أو المشروع الحضاري الإسلامي قبالة الفراغ الذي أحدثه سقوط جل النظم والأفكار والتجارب الوضعية، الشمولية والمحدودة على السواء.

أما نظرته للحضارة فتتسم بـ«الكلية» أو «الشمولية» من حيث إن الحضارة كل لا يتجزأ ويرى أنه إذا حدث أن تأخرت بعض حلقاتها عن الفعل أو التنفيذ، فمعنى هذا أن هناك أولويات وضرورات، اقتضت تقديم مطالب أخرى عليها، في انتظار اليوم الذي يتيح لها فرصة تحقيقها وهذا هو الذي حدث بالنسبة للحضارة الإسلامية في أواسط العصر الأموي وطيلة العصور التالية فإنه ما لبثت حضارة الإسلام أن استكملت مقوماتها في القرنين الثالث والرابع الهجريين، بعد أن كانت في الفترة السابقة تبذل جهودًا لاستكمال أسباب النمو والانطلاق أيضًا.

ويضيف أن الحضارة الإسلامية قدمت مجموعة من التحولات الأساسية يمكن

إيجازها في المحاور التالية ، أولًا: محور التوحيد في مواجهة الشرك والتعدد. ثانيًا: الوحدة في مواجهة التجزؤ. ثالثًا: الدولة في مواجهة القبيلة. رابعًا: التشريع في مواجهة العرف، خامسًا: المؤسسة في مواجهة التقاليد. سادسًا: الأمة في مواجهة العشيرة. سابعًا: الإصلاح والإعمار في مواجهة التخريب والإفساد. ثامنًا: المنهج في مواجهة الفوضى والخرافة والظنون والأهواء. تاسعًا: المعرفة في مواجهة الجهل والأمية. عاشرًا: التوازن والتناغم والثنائيات في مواجهة التناقض والنفي والاصطراع.

وبنفس هذه الرؤية الكلية العقدية في نظرته للحضارة الإسلامية أشار الكاتب – أيضًا – إلى العوامل التي أدت إلى انهيار الحضارة الإسلامية بنفس هذا النهج وهذا المنطلق حيث رأى أن أهم العوامل التي أدت لهذا الانهيار هي العوامل الداخلية والتي تتمثل في: انحسار الجهاد، وتضاؤل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وغياب مفهوم التوحيد، وتسلسل الشرك والصنمية، والاستبداد السياسي، والفصل بين القيادتين الفكرية والسياسية، وطغيان القبلية والإقليمية والعرقية على مفهوم الأمة، والظلم الاجتماعي، والتمزق المذهبي، والغلو والتشدد، وغياب العلم وانتشار الجهل، وفوضى التعامل مع خبرات «الآخر»، وتضاؤل القدرة على توظيف المكان والزمان.

وفى ضوء هذه الرؤية المنهجية وبغرض تجاوز المنهج التفكيكي في دراسة حضارة الإسلام، يقدم منهجًا وسياقًا لدراسة الحضارة الإسلامية في المرحلة الجامعية موزعًا على أربع سنوات:

السنة الأولى: أصول الحضارة الإسلامية، التأسيسات الإسلامية للفعل الحضاري في القرآن الكريم والسنة، والتطبيقات التاريخية لعصري الرسالة والراشدين.

السنة الثانية: نمو الحضارة الإسلامية، المعطيات والوظائف والخصائص.

السنة الثالثة: تدهور وانحلال الحضارة الإسلامية، العوامل الداخلية والخارجية.

السنة الرابعة: واقع الحضارة الإسلامية ومستقبلها، قبالة تحديات التكنولوجيا والتقدم الغربي، ومقومات المشروع الحضاري البديل.

الثاني: مدخل منهاجي لعلم التاريخ في ضوء مشروع إسلامية المعرفة

ارتبط الكاتب بمشروع إسلامية المعرفة منذ فترة مبكرة من حياته، ويعرف «إسلامية المعرفة» أو «أسلمة المعرفة» بأنها ممارسة النشاط المعرفي كشفًا وتجميعًا وتوصيلًا ونشرًا من زاوية التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان، كما أن لفظ «إسلامية» قد يمتد خارج دائرة الدين الإسلامي لكي تحتضن وتمس كل ما يتحرك في دائرة الإيمان الأصيل بوحدانية الله» .

كما يرى أن هذه «الإسلامية» لا تنسحب فقط على ما يسمى بالعلوم الصرفة (المحضة) والتطبيقية في التعامل مع الوجود، وإنما تمتد بالضرورة إلى ما يعرف بدائرة العلوم الإنسانية؛ بل إنها أشد ضرورة لأنها المعنية بترتيب وضع الإنسان في العالم وتنظيم حياته بما يجعله قديرًا على تحقيق مهمته في العالم. إن «إسلامية المعرفة» لا تعنى الدعوة لتحقيق الوفاق بين معطيات العلوم الإنسانية وبين المطالب الدينية على مستوى التطبيق، وإنما تعنى قبل هذا وبعده، احتواء كافة الأنشطة المعرفية الإنسانية على المستويين النظري والتطبيقي معًا، كما أن إسلامية المعرفة ضرورة على أكثر من مستوى: العقدي، والإنساني، والحضاري، والعلمي.

وفى ضوء نقده للمناهج الغربية في دراسة التاريخ الإسلامي، وارتباطه بمشروع البديل الحضاري – إسلامية المعرفة – من ناحية أخرى، يطرح عدة

ضوابط منهجية لتقعيد منهج لدراسة التاريخ الإسلامي:

أولًا: فهم التاريخ الإسلامي من خلال وحدة الحركة وكسر القشرة الخارجية للأحداث والتبدلات.

ثانيًا: التحقق برؤية شمولية تلم التفاصيل والجزئيات كي تستمد منها المؤشرات الأكثر امتدادًا لمعطيات التاريخ الإسلامي.

ثالثًا: تحقيق التوازن المطلوب بين الجوانب السياسية والعسكرية والجوانب العقدية والاجتماعية والحضارية.

رابعًا: تسليط الضوء على العلاقة الأصيلة المتبادلة بين الإسلام وبين وقائع التاريخ الإسلامي في آفاقها كافة.

خامسًا: متابعة الظواهر التاريخية الكبرى عموديًا كي لا تتعرض للتشتت والتقطيع ، ولكي تتاح فرصة السيطرة على أبعادها وصيرورتها وصولًا إلى ملامحها الأساسية وسماتها المتفردة.

كما قدم عماد الدين خليل في ضوء هذه الرؤية المنهاجية محاولة رائدة في مجال تكشيف آيات القرآن الكريم تكشيفًا موضوعيًا. حاول فيها أن يحصر كل الآيات التي تتحدث عن موضوع علمي مساو، جمعها مع بعضها في إطار موضوعي. وأطلق على هذه المحاولة «محاولة لتبويب الآيات العلمية في القرآن الكريم».

ويذكر أن ليس كل ما طرحه القرآن في واحد من حقول العلم أريد به أن يكون (إعجازًا) للأجيال التالية، ولم يكن معروفًا في عصر النزول. فثمة صنفان من الآيات نطالعهما: صنف جاء على سبيل الإخبار ولفت الأنظار إلى خليقة الله وإبداعه في الكون والعالم والنفس، وهو يعرض لظواهر موجودة ومعروفة في عصرها، كما هي معروفة في كل عصر، وصنف آخر تضمن إشارات لحقائق وسنن

ونواميس (علمية) ما كانت معروفة في عصرها، وتولى العلم بمرور الزمن الكشف عنها، وهى التي تسمى عادة بالإعجاز العلمي في القرآن. ويؤكد أن ما طرحه القرآن لا يمثل كشفًا بكل الحقائق، فالقرآن ليس كتابًا علميًا، وقد سعى الكاتب في هذه المحاولة إلى إيراد كافة الآيات والمقاطع سواء تلك التي تنتمي إلى هذا الصنف أو ذاك. فحصر آيات لموضوعات مثل : الفلك، الجغرافيا، النبات، الحيوان، خلق الإنسان، الطب وعلم النفس.

(٣) **الكتاب: أقسامه، منطلقاته، وأهدافه**:

الطبعة الأولى للكتاب كانت ضمن كتاب الأمة عام ١٩٨٣، والتي يشرف عليها عمر عبيد حسنة، والتي صدَّر لها في هذه الطبعة واحتفظت بها الطبعة التي بين أيدينا -أيضًا- وهى الطبعة الخامسة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٩٩٢، ويقع في ١٨٠ صفحة.

ويرتبط هذا الكتاب من الناحية المعرفية بمشروع عماد الدين خليل الذي يهتم بالمنهج وبالمداخل المعرفية المنهاجية لإصلاح الفكر الإسلامي ومن ثم يشير إلى التناسق والانسجام المنهجي مع النتاجات الفكرية الأخرى للمؤلف، أو كما يذكر عمر عبيد حسنة في تقديمه للكتاب «أن كتابات عماد الدين خليل يمكن أن تصنف جميعًا ضمن إطار صياغة العقل المسلم...حيث قدم تجربة رائدة في محاولة لتطبيق المنهج الإسلامي في كتابه التاريخ والسيرة، والمنهج الذي يقوم على التوازن بين الذات والموضوع، ويسعى إلى إحياء الموقف التاريخي، ويستهدف النظرة الكلية للأحداث والحركات والأشياء».

كما يأتي هذا الكتاب - أيضًا - ضمن الخريطة المعرفية للمعهد العالمي للفكر الإسلامي ولمشروع إسلامية المعرفية وتحديدًا في إطار محور معالجة الفكر الإسلامي وإصلاح الأزمة الفكرية التي يعانى منها العقل المسلم والتي تمثل محورًا أساسيًا

لعمل المعهد وأهدافه، والتي أصدر المعهد فيها «أزمة العقل المسلم» لعبد الحميد أبو سليمان و«معالم المنهج الإسلامي» لمحمد عمارة وطه جابر العلوانى «إصلاح الفكر الإسلامي وغيرهما. تأتى هذه الدراسة إذن ضمن هذا الخيط الناظم لمعالجة القصور في «الفكر» و«العقل» المسلم باعتباره يمثل في المرحلة الآنية الأولوية الفكرية والمنهجية للعمل الإصلاحي الإسلامي.

يعالج الكتاب في فصله الأول النقلات، أو التحولات الأساسية التي نفذها الإسلام، أو منحها بعبارة أدق، عقول أتباعه في المجالات التصورية، والإعتقادية، والمعرفية والمنهجية. ويسعى في الفصل الثاني لتقديم عرض موجز لأبعاد التحقق التاريخي الذي نفذه العقل المسلم المصنوع على عين الله وتوجيه رسوله (ﷺ)، أما الفصلان الأخيران فيؤشران على أن الملامح والسمات الخاصة للتوجه الحضاري لهذا العقل، وللحضارة التي صنعها والتي يطلب منه أن يصنعها على اختلاف الأمكنة وتغاير الزمان، وفى «الخاتمة» يخلص إلى أن حل المعضلة يمكن أن يتحقق من جديد، وببرنامج العمل نفسه الذي صنع حضارة الإسلام المتألقة في عصور الفاعلية والعطاء، ليس بالانفصال عن العصر ولكن بالعمل في صميم العصر كما يوحى عنوان «الخاتمة» «نحو تكنولوجيا إسلامية».

يرى عمر عبيد حسنة – في تقديمه – أن الدعوة إلى «إعادة صياغة العقل المسلم» التي يطرحها الكتاب أو الوصول إلى العقل المرتب لمسلم اليوم هي دعوة مزدوجة في حقيقة الأمر أو ذات بعدين رئيسين: **الأول** ، تصحيح التصورات، وذلك بالقدرة على رؤية الخطوط الإسلامية ،والمسارات الإسلامية متواصلة متكاملة لا يصطدم بعضها بالآخر لتأخذ بعدها بضبط وربط...والقدرة على تكوين العقلية التي تمتلك أبجديات الثقافة الإسلامية فتحسن القراءة الإسلامية التي تستطيع من خلالها أن تفسر الظواهر الاجتماعية تفسيرًا إسلاميًا، وتصدر عن تصور

شامل للكون والحياة والإنسان، ولا يقع فريسة للتفسيرات غير الإسلامية، كما أنها لا تبقى مشوشة غير قادرة على التوازن والاعتدال.

الثاني، تخليص العقل من التركيز على النظرة الجزئية، لأن التركيز عليها يؤدي إلى آفات عقلية ليس أقلها العجز والانحسار كما يؤدي إلى تضخيم دور بعض الفروع والجزئيات الأمر الذي يقتل الإبداع، ويصيب قدرة العطاء عند الإنسان، ويوقع في التقليد ويحرم صاحبه من الإفادة من جهود الآخرين سواء أكان ذلك بالتعامل مع التراث أم بالقدرة على استلهام الكتاب والسنة لمواجهته حاجات العصر المتجددة.

ويذكر الكاتب أنه يحاول في هذا الكتاب متابعة الخطوط العريضة لأصول التشكيل العقلي الذي نفذه الإسلام فمنح أتباعه تلك القدرات الفذة على الفعل والعطاء والإبداع. وذلك لمعالجة ما أصاب العقل المسلم - عبر القرون الأخيرة - من تخلف وجمود أديا إلى فقد الإنسان المسلم القدرة على الفاعلية، والاستجابة بالتالي لتحديات الحضارة الغربية التي يصوغها وينميها العقل الغربي، لذا أصبح من الضروري أن نشمر جميعًا عن ساعد الجد للبحث عن الصيغ والمفاهيم التي تتجاوز بنا هذه الحالة وتعيدنا مرة أخرى إلى مركز الفعل والشهادة على صيرورة العالم ومعطياته الحضارية.

وتأتى محاولة الكاتب في سياقين أساسيين، يتمثل أولهما في تشخيص الأدواء المعاصرة التي تحاصر العقل المسلم وتشل فاعليته، وثانيهما البحث عن «الأصول» الإسلامية التي حررت عقول المنتمين أول مرة، ومنحتها المنهج والفاعلية وهى تمتلك القدرة في كل لحظة على أداء الدور نفسه.

(٤)عوائق التقدم ورهان «التحصين الذاتي»:

يقف الكاتب على أهم العوائق التي أعاقت تقدم المسلمين في القرون الأخيرة

وهو وجود أكثر من خلل في الدوائر أو المجالات الآتية، التصورات الاعتقادية، التعامل المعرفي، منهج العمل. ويراهن في هذا الكتاب على ما أطلق عليه «التحصين الذاتي» للخروج من هذه الأزمات، فلو نظرنا إلى ما فعله نموذجان شرقيان إزاء تحدى الحضارة الغربية وهما الصين واليابان، لوجدنا أنهما بحصانتهما الذاتية إزاء تفوق هذه الحضارة من جهة، وبانتزاع أسرار التقنية واعتمادها من جهة أخرى، دونما أي قدر من التنازل عن الذات، قدرت هاتان الأمتان أن تطويا معظم المسافة بينهما وبين التفوق الغربي. ويتساءل عن أحوالنا ورهان الخروج من الأزمة، أو لا يكون التحصن العقدي والاستمداد من الجذور هو الضمان الوحيد لحماية الذات؟ وهذه الدعوة لا تمثل انفصالًا عن العصر، كما أنها لا تمثل ثمرة «لردة الفعل».

(٥) ماذا يعنى انتمائي للإسلام؟:

يوضح الكاتب أبعاد الاعتقاد بالإسلام وآثاره وكيف أنه أحدث نقلة كبيرة في التصورات الأساسية للإنسان «إن الانتماء إلى الإسلام يعنى الموافقة المبدئية على الدخول في عمل مبرمج مرسوم.. والإيمان بالله يعنى التحقق بالقناعات الكافية بجدوى هذا العمل.. أما التقوى فهي تلك الطاقة الفذة التي تشعل مصباح الضمير فيظل متألقًا متوهجًا حتى يغيب الإنسان في التراب ما دام يشعر في كل عصب وجارحة وخلية أن الله يرقبه وهو يمارس هذا العمل أو ذاك...ويجيء الإحسان لكي يضع الإنسان المسلم المؤمن المتقي.. في القمة.. في المصاف الأعلى حيث الإحسان.. الإبداع الكامل في كل ما يقدمه الإنسان.. إنه ها هنا يقف أمام الله سبحانه.. وإن نداء كريمًا من نبيه (ﷺ) ينفخ فيه اللحظة تلو اللحظة إن الله يحب منه إذا عمل عملًا أن يتقنه».

ويضيف -أيضًا- حول حجم النتائج المتمخضة عن هذه العودة.. إن الإنسان بمجرد انتمائه الجاد إلى هذا الدين، يضع نفسه وقدراته في سياق واحد، وتوجه

واحد، ومجرى واحد مع خلائق الله كافة، وسننه المذخورة في الطبيعة، ونواميسه العاملة في الكون.. إنه سيتجاوز مواقع الارتطام التي تفتت الطاقة وتضعف فاعليتها.. إلى الانسجام والتناغم مع السنن والنواميس، سوف يضيف إليها ويأخذ منها.. ومن هذا الشد المتبادل من هذا الوفاق.. من هذا الأخذ والعطاء على الدرب الواحد، بالقانون الواحد، صوب الهدف الواحد.. يتحول الإنسان المؤمن إلى (طاقة) فذة في ميدان الفعل والإنجاز.. قدرة مذهلة في مجال العطاء والإبداع.. شعلة متوهجة يمتد إشعاعها إلى أعماق الذات فيضيئها ويدفعها، وإلى آفاق العلم فتتبين ملامح الطريق.. ليس ثمة تفتت في الطاقة، ولا غموض في الطريق، ولا ضياع للأهداف.

(٦)النقلة التصورية الاعتقادية:

أولى هذه التحولات، وأكثرها أهمية، لأنها بمثابة القاعدة التي أنبت عليها سائر التحولات: النقلة التصورية – الاعتقادية.

فإنه ما من خطوة في تاريخ البشرية حررت العقل، وكرمته، ووضعته في موقعه الصحيح كهذه الخطوة: تحويل التوجه الإنساني من التعدد إلى الوحدة، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن عشق الحجارة والأصنام والتماثيل والأوثان إلى محبة الحق الذي لا تلمسه الأيدي ولا تراه العيون.. كسر للحاجز المادي باتجاه الغيب، وتمكين للعقل من التحقق بقناعات تعلو على معطيات الحس القريب.

لقد تحدث القرآن الكريم عن هذه النقطة فقال: إنها خروج بالناس ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧].. التحول الكامل من الأسود إلى الأبيض، والانتقال من النقيض إلى النقيض.. وقال أيضًا بأن الإسلام جاء لتحرير بني آدم: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].. ونادى أكثر من مرة بأن الدين الجديد هو (الصراط المستقيم) وما وراءه فليس سوى التيه،

والاعوجاج، والضياع، والهوى، والضلال.. ولن يقدر عقل مهما أوتي من فطنة على أن يعمل ويبدع ويعطي وهو يتخبط في التيه ويكبل بالأغلال.

لقد طرحت هذه العقيدة، أو بينت بعبارة أدق، على حشد من القيم التصورية، كالربانية والشمولية والتوازن والثبات والتوحيد والحركية والإيجابية والواقعية.. تلتئم وتتداخل وتتكامل لكي تشكل نسقًا عقيديًا، ما بلغت عشر معشاره أية عقيدة أخرى في العالم، وضعية كانت أم دينية.. ولن تبلغه أبدًا. وكما أن هذا «النسق» المحكم يمثل تطابقًا باهرًا مع معطيات الفطرة البشرية في أصولها النقية الحرة.. فإنه يمثل في الوقت نفسه تطابقًا مذهلًا مع معطيات العقل المحضة، وتطلعاته وآفاقه.

(٧) النقلة المعرفية:

النقلة الأخرى التي يشير إليها الكاتب ضمن النقلات المتعددة للعقيدة الإسلامية، هو التحول المعرفي.. عمل في صميم العقل من أجل تشكيله بالصيغة التي تمكنه من التعامل مع الكون والعالم والوجود، بالحجم نفسه، والطموح نفسه، الذي جاء الإسلام لكي يمنحهما الإنسان. منذ الضربة الأولى في كتاب الله.. الكلمة الأولى.. نلتقي بحركة التحول المعرفي هذه: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١-٥].

إن نداءات القرآن المنبثقة من فعل القراءة والتفكير، والتعقل والتفقه والتدبر.. إلى آخره.. منبثة في نسيج كتاب الله.. لم تخفت نبرتها أبدًا هناك في العصر المكي أو هنا في العصر المدني.. لكأنها معجونة بالخيط الإلهي الذي نسج آياته البيانات.. ليس عبثًا أن تكون كلمة (اقرأ) هي الكلمة الأولى في كتاب الله.. وليس عبثًا أن تتكرر مرتين في آيات ثلاث.. وليس عبثًا - كذلك - أن ترد كلمة (علم) ثلاث مرات وأن يشار بالحرف إلى القلم: الأداة التي يتعلم بها الإنسان.. وبعدها، وعبر المدى الزمني لتنزل القرآن، ينهمر السيل ويتعالى النداء المرة تلو المرة: اقرأ، تفكر، اعقل، تدبر،

تفقه، انظر، تبصر.. إلى آخره.. ويجد العقل المسلم نفسه ملزمًا، بمنطق الإيمان نفسه، بأن يتحول، أن يتشكل من جديد لكي يتلاءم مع التوجه (المعرفي) الذي أراده الدين الجديد. لقد كان القرآن الكريم يتعامل مع خامة لم تكن قد حظيت من «المعرفة» إلا بالقسط اليسير.. مع جيل من الناس لم يبعد - بعد - عن تقاليد الجاهلية، وقيمها، وطفولتها الفكرية.. لكنه قدر، بقوة الإيمان المعجون بالدعوة الجديدة، على أن يعلمهم فعلًا.. وذلك بأن يعيد تشكيل عقولهم لكي تكون قديرة على استيعاب المضامين الجديدة، مدركة للأبعاد الشاسعة التي جاء هذا الدين لكي يتحرك الإنسان صوب آفاقها الرحبة.. وما كان ذلك ليتحقق لولا إشعال فتيلة التشوق المعرفي للمسلم، ودفعه على البحث والتساؤل والجدل.

(٨) **النقلة المنهجية**:

أما النقلة الثالثة، فلم تكن لتقل عنهما خطرًا بحال من الأحوال.. وهي ترتبط بشكل ما، بالنقلتين السابقتين، وتنبثق عنهما في الوقت نفسه.. إنها النقلة المنهجية.. ونحن نعرف اليوم، كم يؤدي «المنهج» دورًا خطيرًا في حركة الإنسان الفكرية.. والحضارة عمومًا.. ونعرف أنه دون «منهج» فليس ثمة طريق يوصل إلى الأهداف مهما بذل من جهد وقدم من عطاء.. والنقلة المنهجية التي أتيح للعقل المسلم أن يتحقق بها، أن يتشكل وفق مقولاتها ومعطياتها.. امتدت باتجاهات ثلاثة: السببية، القانون التاريخي، منهج البحث الحسي (التجريبي).

إن إحدى طرائق القرآن المنبثة عبر سوره ومقاطعه من أقصاها إلى أقصاها، هي: التأكيد على ضرورة اعتماد هذه الرؤية السببية للظواهر والأشياء من أجل الوصول إلى معجزة الخلق ووحدانية الخالق سبحانه.. إذ بدون هذه القدرة على الربط بين الأسباب والمسببات فإن العقل المؤمن لن يكون قادرًا على التحقق بالقناعات الكافية، ولن يكون بمقدور آيات الله المنبثة في الطبيعة والعالم والوجود

أن تحدث فينا هزة الإيمان العميق المتمخض دومًا عن اكتشاف الارتباط المحتوم بين معجزة الخلق وبين الخالق.. كما إن «المنهج» الجديد الذي يطرحه القرآن الكريم يؤكد، أكثر من مرة، على أن «التاريخ» لا يكتسب أهميته الإيجابية إلا بأن يُتخذ ميدانًا للدراسة والاختبار، تُستخلص منه القيم والقوانين التي لا تستقيم أية برمجة للحاضر والمستقبل إلا على هداها، وليس الأسلوب الفني في العرض سوى جسر تحمل عليه العروض والنتائج النهائية لأية ممارسة في حقول التاريخ.

ويرى الكاتب أن الكسب المعرفي للعقل المسلم في ميدان المنهج التجريبي لا يعدله كسب آخر، «لا الكشف عن السببية ولا القانونية التاريخية، يعدل الكسب المعرفي القِّيم الذي أحرزه العقل المسلم خصوصًا، والعقل البشري عمومًا، والذي تمثل بمنهج البحث الحسي - التجريبي الذي كشف النقاب عنه، ونظمه، وأكده، كتاب الله. لقد دعا القرآن الناس إلى التبصر بحقيقة وجودهم، وارتباطاتهم الكونية عن طريق «النظر الحسي» إلى ما حولهم، ابتداء من مواقع أقدامهم وانتهاء بآفاق النفس والكون، وأعطى للحواس مسؤوليتها الكبيرة عن كل خطوة يخطوها الإنسان المسلم في مجال البحث والنظر والتأمل والمعرفة والتجريب».

(٩) أبعاد التحقق التاريخي:

يصل بنا الكاتب هنا بعد هذا الطواف العقلي إلى ما أسماه بالنتيجة المحتومة التي تمخضت عن هذه التحولات الحاسمة عقيديًا ومعرفيًا ومنهجيًا والتي شكلت عقلًا جديدًا قادرًا على الاستيعاب والفعل والإضافة والإبداع. وهكذا، فإن النقلة أو التحول الحضاري الكبير الذي نفذه المسلمون، وتحققوا به عبر قرون التألق والعطاء، إنما جاء ثمرة «للعقلية» التي صاغها الإسلام ومكنها بتحولاته الخطيرة تلك من أن تؤدي دورها الشامل في تكون وإغناء الحضارة الإسلامية.

وهكذا فإن قيام الدين الجديد بتشكيل عقل إسلامي فعال، بالمواصفات التي

تحدثنا عنها، ومن خلال تحولات جذرية على المستويات كافة، العقيدية والمعرفية والمنهجية.. كان بمثابة إرهاص لمولد طاقة حضارية فذة، كان لابد أن «تلد» عطاءها المتواصل بعد أن نضج الجنين في رحم تهيأت له شروط الميلاد الميسور كافة.. واليوم فإنه ليس بمقدور قوة في الأرض أن تبعث المسلمين من جديد للفعل الحضاري ما لم تتهيأ الشروط والمواصفات نفسها... ما لم تتحقق بالتحولات الحاسمة ذاتها: عقيديًا ومعرفيًا ومنهجيًا.

(١٠) الفعل الحضاري الإسلامي:

لقد امتد «الفعل الحضاري الإسلامي» لكي يغطى اتجاهات ثلاثة، تضافرت في نهاية الأمر لكي تعزز الوجود الحضاري الإسلامي وتغنيه من جهة، ولكي ترفد مجرى الحضارات البشرية بالعطاء المتنوع الواحد من جهة أخرى.. فأما أولى هذه الاتجاهات فتتمثل باحترام الحضارة الإسلامية للتراث الحضاري البشري الذي سبقها وعاصرها.. ولم يكن العقل الإسلامي الجديد بالذي يتشنج في دائرة الذات، وينقفل على حدود الأنا.. بل لقد علمته العقيدة التي أعادت تشكيله تقاليد الانفتاح المرن على كل حضارة، أو إنجاز ما دام أنه قد يتضمن جانبًا من الحكمة التي يتحرق العقل بحثًا عنها.. ولقد أصبحت هذه التقاليد بالنسبة إليه ممارسات يومية، وعادات سائدة، امتدت لكي تغطي مسيرته الطويلة.

(١١) الاستيعاب الحضاري:

يؤكد الكاتب على أصالة الإيمان الإسلامي بمبدأ التنوعية والتواصل والتعددية والإنسانية الحضارية وذلك أن الحضارة الإسلامية وهى في طور التشكل كان العقل المسلم يمارس عملية بناء الذات الحضارية، مستفيدًا إلى أقصى حد، من خبرات الآخرين.كل الحضارات البشرية، سواء انبثقت عن رؤية دينية، أم موقف وضعي.. صاغها المؤمنون أم صنعها الكفار.. كانت تجد في حضارة الإسلام صدرًا رحبًا.كل الحضارات العالمية: يونانية، ورومانية، وبيزنطية، وهللينية، وفارسية،

وهندية، وتركية وصينية.. وتراث الجماعات والشعوب التي عاشت في المنطقة: آرامية، ونبطية، وقبطية، وفينيقية.. إلى آخره... كانت - جميعًا - بمثابة حقول مفتوحة جال في أطرافها العقل الإسلامي، فأخذ ورفض، وانتقى ومحص واختبر، وعزل واستبعد وفصل.. وعرف، وهو يتجول عبر هذه الحقول الشاسعة، ما الذي ينسجم ونسغه الصاعد ويزيده دمًا وحياة، وما الذي يحمل جراثيم المرض والهزال، والدم الأزرق الفاسد، فكان يعرف جيدًا كيف يرفض هذا ويأخذ ذلك.

إن هذا الموقف الحضاري المتبصر، المرن، الموزون.. حقق مردوده الإيجابي الفعال ليس على مستوى الحضارة الإسلامية فحسب، ولكن عبر نطاق الحضارات جميعًا.. العناصر الطيبة الصالحة في هذه الحضارات بعبارة أدق.. وهو خلال هذا كله إنما كان يؤدي وظيفة لم تؤدها من قبل حضارة أخرى بهذه السعة والعمق: حماية التراث الحضاري البشري، وتمكينه من البقاء في مواجهة تحديات السقوط والنسيان والفناء.

(١٢) الإبداع بعد الانتقاء:

لكن العقل المسلم لم يقف عند هذا الحد..كانت هنالك وظيفة أخرى تنتظره، وتعد بمثابة النتيجة المحتومة لشروط قد توفرت سلفًا، ولقد أحسن تنفيذها حقًا: الإضافة والتجديد والإغناء وإعادة التركيب لمعطيات حضارية كانت بأمس الحاجة للتغيير والتبديل وتوسيع نطاق البناء، بعد إذ لم تعد صالحة تمامًا لحاجات العصر الجديد، ومطالب الإنسان المؤمن الجديد. إن كثيرًا من القيم الحضارية القديمة كانت يومها قد أصبحت أمرًا «رجعيًا» وكانت حركة الإسلام «التقدمية» تقضي بضرورة تغييرها واستبدالها بعناصر جديدة أكثر صلاحية وانسجامًا مع إيقاع الحياة التي صاغها الإسلام.

ليس هذا فحسب، بل إن العقل الإسلامي المتحضر قدر على أن يكتشف ويبتكر

عناصر وقيمًا حضارية جديدة بالكلية، وأن يقدمها للعالم ثمارًا يانعة لجهده الخاص، فليس كل ما صنعه المسلمون هو حماية التراث الحضاري القديم، وإعادة شرحه وتفسيره، وإضافة بعض الشروح والهوامش عليه.. وكأن ذلك التراث هو الطريق الوحيد لكل إبداع حضاري، وكأنه حتمية مقفلة لن يستطيع عقل أن يشذ على مواضعاتها، ويخرج عن حدودها المرسومة. لقد أبدع العقل الإسلامي، ابتداء، قيمًا جديدة، وابتكر واكتشف الكثير والكثير من المعطيات والنظم الحضارية التي كانت بمثابة الأسس التي بنت عليها فيما بعد حضارات أخرى في مشارق الأرض ومغاربها.

ثم قام الكاتب بسرد إبداعات وإضافات الحضارة الإسلامية في الميادين التطبيقية المختلفة مستشهدًا بكتابات «المنصفين من المستشرقين» مثل: لويس يونغ «العرب وأوروبا»، جي إي. جرونباوم «الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية»، دي لاسى أوليرى «الفكر العربي ومركزه في التاريخ»، جوستاف لوبون «أثر العرب في حضارة أوروبا»، وغيرهم ممن تعاملوا بموضوعية مع إسهامات الحضارة الإسلامية وإبداعها الحضاري.

(١٣) الهيكل الحضاري للرؤية الإسلامية:

في نظرة هندسية معرفية من الكاتب يرى أن الهيكل الحضاري للرؤية الإسلامية يمكن أن يتمثل بمثلث متساوي الأضلاع، محكم الزوايا، أو بمعادلة ذات ثلاثة أطراف، أو بعمارة مؤلفة من أدوار ثلاثة، يقوم أحدها على الآخر، ويتناظر معه بتطابق هندسي معماري مرسوم: الأرضية، والإنسان، وبرنامج العمل.

- **التسخير للأرض:**

إن كتلة العالم والطبيعة، وفق المنظور الإسلامي، قد سخرت للإنسان تسخيرًا، وقد حدد الله سبحانه أبعادها وقوانينها وأحجامها بما يتلاءم والمهمة الأساسية لخلافة الإنسان في العالم، وقدرته على التعامل العمراني مع الطبيعة تعاملًا إيجابيًا

فاعلًا.. ولنتصور كيف سيكون الحال، على مستوى القدرة على التحضر، لو كانت الشمس أو القمر، على سبيل المثال، أقرب قليلًا أو أبعد قليلًا عن موقعها المرسوم.. ولو كانت الجاذبية أخف قليلًا أو أثقل قليلًا عن موقعها المرسوم.. ولو كانت الجاذبة أخف قليلًا أو أثقل قليلًا عن شدها المحسوب، ولو كانت مكونات الغلاف الغازي غير ما هي عليه من دقة معجزة في النسب المحددة.. ولو كانت مياه البحار والمحيطات خالية من الملح، والأجواء راكدة الرياح، ومحور الأرض عموديًا، وشكلها غير بيضاوي.. إلخ.

- **الإنسان:**

يربط الكاتب بين مكانة الإنسان على الأرض التي أرادها الله له وتلك الإمكانات العقلية التي منحت له كي يتوافق وينسجم مع القيام بهذا الدور فخلافة الإنسان عن الله في الأرض، ومنحه القدرة على التعلم والفعل والاستيعاب، وتكريمه الأقصى بسجود الملائكة له.. مجابهته بإبليس وبدء «الصراع» بين الطرفين، و«الهبوط» الزمني «الموقوت» إلى الأرض، كأول تجربة من تجارب هذا الصراع... «تعليق» الدور البشري في العالم على تلقى «الهدى» من الله وحده، وتحديد المصير الذي سيؤول إليه موقف الإنسان «الحر» إزاء هذا الهدى في الأرض والسماء.

لقد أراد الله للإنسان أن يكون خليفته في الأرض، فمنحه القدرة العقلية على التعلم، والقدرة الجسدية على التنفيذ والعمل والإبداع، والإرادة «الحرة» لاختيار أسلوب الحياة التي يقوده إليها فكره ودوافعه النفسية والجسدية.. ولكي لا يحس الإنسان «بالدونية» ولا تدور في خاطره أية فكرة عن «سلبية» دوره في العالم، رُفعت مكانته إلى أعلى مصاف، وأمر الملائكة أن يسجدوا له.. وتلك هي أسس تقود ولا ريب إلى تصور دور الإنسان في العالم كقوة فاعلة، مفكرة، مريدة، منفذة، مستقلة، مفضلة.. الأمور التي لابد منها لأي إبداع حضاري على الأرض.

• **الديـن:**

أما الحد الثالث للهيكل الحضاري في الرؤية الإسلامية فيتمثل ببرنامج العمل، أو «الدين» بعبارة أخرى.. والدين في المنظور الإسلامي هو «منهاج شامل» للحياة يتحرك «الإنسان» على «أرضية العالم» وفق مقولاته وتوجهاته وخططه وأهدافه، ويمارس «استخلافه» الحضاري للطبيعة التي «سُخرت» له وفق تعاليمه ومعطياته.. ودونه يضيع الإنسان، ويفقد القدرة على أداء وظيفته المرسومة أي - بعبارة أخرى - يفقد إمكانية تنفيذ دوره المرسوم في طريق الرقي الصعب الطويل... وهكذا تلقي آدم منذ لحظة هبوطه الأولى «كلمات» من ربه لتكون بمثابة الهادي والدليل.

إن الدين، وفق هذه الرؤية، يبدو برنامجًا حضاريًا.. وهو يكمل ويناظر ويناسب طرفي المسألة الآخرين: الأرضية والإنسان. وما دامت الحياة الدنيا تعني - في المنظور الديني عمومًا - تجربة اختبار وابتلاء، فمعنى هذا أنها تتطلب منا عملًا دائمًا وإبداعًا متواصلًا.. ولكن أي عمل وإبداع يتوجبان على الإنسان في الفرصة التي ستنتهي إلى «أجلها المسمى»؟ إنه ليس ارتجالًا كيفيًا، ولا مواقف جزئية مفككة، كما أنه ليس فوضى لا يحدها نظام ولا يسلكها هدف..إنما العمل والإبداع اللذان ينبثقان عن تخطيط مرسوم، وينطلقان من مواقف كلية شاملة، ويصدران عن نظام مبرمج إلى غاية دينامية لا حدود لها أبدًا تلك هي «عبادة الله» والتوجه إليه والتلقي عنه وحده.

(١٤) الملامح الأساسية للفعل الحضاري الإسلامي:

يستخلص الكاتب من قراءته المنهجية والتاريخية للحضارة الإسلامية جملة من الإسهامات المعرفية الحضارية والمنهجية تميز بها الفعل الحضاري الإسلامي منها:

- روح العمل والإبداع.
- مجابهة التخريب والفساد.
- التوازن بين الثنائيات وتوحدها.

- التناغم والوفاق مع الطبيعة والعالم والكون.
- الميزة التحررية «على المستوى المادي والمعنوي».
- الإنجاز الحضاري ليس هدفًا نهائيًا وإنما وسيلة لتهيئة الحياة لعبادة الله وتوفير مناخ الاستخلاف.

(١٥) **نحو تكنولوجيا إسلامية**:

يطرح الكاتب في نهاية هذه الرحلة العقلية رؤيته للخروج من الأزمة والتي يراها في طريق مفتاحين أساسيين هما التغيير الذاتي، قيام مجتمع إسلامي تكنولوجي:

- **التغيير الذاتي:**

يقصد بالتغيير الذاتي تلك العملية الشاملة التي تغطي الطاقات البشرية كافة: عقلية وروحية وأخلاقية وسلوكية وجسدية.. وأي تجزئ في الرؤية، أو الموقف، يقتل المحاولة في المهد.. ولكننا بتأكيدنا على التشكل، أو التغيير العقلي، إنما نعتمد ضرورة منهجية تضع في الاعتبار، دومًا، سلمًا للأولويات، فتبدأ بالأهم فالمهم فالأقل أهمية.. ولما كان التركيز في عملية التغيير قد انصب في معظمه على الجوانب الأخرى، بعيدًا عن العقل، ولما كانت عملية إعادة التشكل العقلي ضرورة قصوى وشرطًا حاسمًا لاستكمال عملية التغيير، كان وقوفنا عندها طويلًا في هذا البحث.. بل كان هذا البحث بمثابة عرض وتحليل لهذه المعضلة بالذات.

وإذا كان «التغيير» ينصب على الذات المسلمة في إطارها الفردي بالدرجة الأولى، لكي ينسحب - من ثم - على الجماعة فيمكن لها في الأرض فإن «الإعداد» ينصب على الجماعة المسلمة بالدرجة الأولى لكي يحمي - من ثم - الذات المؤمنة من الحصار والتضييق في العالم.. والقرآن الكريم يقولها بصراحة، وبالتعبير ونفسه. ﴿

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ [الأنفال: ٦٠] .

ويضيف بأن هذا الإعداد لن يتحقق المطلوب إذ لم تستنفر طاقات الإنسان المسلم كافة، ويعاد تشكيل عقله، كما أراد له الإسلام أن يكون، ليتمكن من أداء دوره في هذه المهمة الكبيرة، معتمدًا على العلم الحديث أداة للتحقق بسياج القوة التي ترهب الأعداء وتمكن للأمة الإسلامية في الأرض.

- **قيام مجتمع إسلامي تكنولوجي:**

إن الدعوة لقيام مجتمع إسلامي «تكنولوجي»، وبدء عصر «تكنولوجيا إسلامية»، إنما هو استمرار طبيعي لموقف الإسلام المفتوح من معطيات العلم في آفاقه، واستكمالًا للدعوة إلى إعادة تشكيل العقل الإسلامي من أجل أن يكون أكثر قدرة على استيعاب المتغيرات وتطوير الحياة الإسلامية وحمايتها - في الوقت نفسه - من التفكك والعدوان.

إن «التكنولوجيا الإسلامية»، التي ترتبط - بطبيعة الحال - بخلفيتها الإيمانية، تعد «ضرورة» ملحة ليس فقط على مستوى الجماعة الإسلامية نفسها، ولكن على مستوى البشرية عامة.. لأنها ستعرف كيف تتحرك، وتنضبط على هدى القيم الدينية والإنسانية القادمة من عند الله، فتكون حقًا في خدمة «الإنسان» الذي عانى الكثير من تكنولوجيا الكفر، والعرقية، والأنانية، والعصيان.

إن على العقل المسلم الجديد أن يأخذ بتلابيب الطاقة التي كشف عنها النقاب، والقوانين العلمية التي تُحيل الطاقة إلى حركة وفعل وتطبيق وإبداع.. أن يمسك برقبة الزمن فيضيفه إلى المادة لتحقيق اللحاق بمسيرة الخصم، والسبق عليه، ما دامت قيم هذا الدين تؤكد بإلحاح على فكرة الزمن، وعلى أن المؤمن الحق هو الذي يعرف كيف «يسارع» وكيف «يسبق».